محمـــد عبد المطلب

١٨٧٠ — ١٩٣١

هو الشاعر البدوى البليغ ، والمجاهد الوطنى الصميم ، محمد عبد المطلب ، ولد سنة ١٨٧٠ ببلدة (باصونه) من قرى مديرية جرجا لأبوين عربيين مصريين من سلالة قبيلة جهينة إحدى قبائل جزيرة العرب ، وكان والده رجلا صالحا متفقها ، فأرسل ابنه إلى الأزهر وتلقى فيه العلم نحو سبع سنين ، ثم انتقل إلى (دار العلوم) ومكث بها أربع سنوات ، وتخرج منها عالما أديبا ، وتولى التدريس فى مدارس الحكومة ، واختير مدرسا بمدرسة (القضاء الشرعى) ، ثم مدرساً فى (دار العلوم) ، ونضج علمه ، واكتمل شعره وأدبه ، فصار من فطاحل الشعراء الذين يشار إليهم بالبنان ، ولما شبت ثورة سنة ١٩١٩ ساهم فيها بشعره وأدبه وجهاده ، وخلّد حوادثها بقصائده الغر ، وكان حجة فى الأدب واللغة ، وشعره يجمع بين البلاغة والجزالة وروعة الأسلوب ، وبلغ فى مكانته الشعرية منزلة فطاحل الشعراء المتقدمين ، وكانت الروح الوطنية الدفاقة تتجلى فى معظم أشعاره وقصائده ؛ وله فى هذه الناحية إنتاج ضخم يصلح فى ذاته أن يكون ديوانا مجتمعا من الشعر الوطنى ، وقد ظل على إنتاجه الشعرى إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٩٣١ .

روحه الوطنية

إن أحسن وصف لروحه الوطنية ومساهمته فى الجهاد وخاصة فى ثورة سنة ١٩١٩ ما قاله فى رثائه صديقه وزميله الشاعر محمد الهراوى إذ يقول عن (جهاده الوطنى) :

فذاك وإن جَدّت خطوبٌ وأجْلَبَتْ ... فإنك للجُلَّى وللحادث الجـــــدِّ

تخاطر والجند المدجّج محـدق ... وتمضى وصوت (الموزريّات) كالرعد

فتبكى وتستبكى العيون على الحِمى وتعدو على العادى عليه وتستعدى
وتخطب حتى تستثير وتثنى وقد حَمِيَتْ آنافُ قومك من وَقْد
وما هالك الجندُ الذى كان محدقا ونفسك من فرط الحمية فى جُند
نزلت عن النفس الكريمة فديةً إلى الوطن العانى ، كذلك مَنْ يفدى

مصر أثناء الحرب العالمية الأولى

١٩١٤ — ١٩١٨

قال من قصيدة له يصف ما عانته مصر أثناء الحرب العالمية الأولى ، وينعى على الإنجليز بغيهم وعدوانهم و إعلانهم الحماية فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ، ويندد بفظائع السلطة العسكرية البريطانية فى سنى الحرب :

وعادت رياض النيل ناراً جحيمُها يُشَبّ لغير الخائن المتملق
فكم سيِّد بين الغيابات حتفُه وآخر بالأصفاد والسوط مرهق[1]
ترى أدمع النعمى بناعم جسمه نجيعَ دمٍ من جلده المتمزق
يقضّى الليالى بين ظلم وظلمة طريدَ الكرى فى جوف أغبرَ مطبق
وتمسى نَجِىّ الحزن جارةُ بيته سوادَ الدجى بالمدمع المترقرق
وفى حجرها لو أبصروا ذو تمائم يكلِّمها بالعين من غير منطِق
إذا فزعت فى الخدر من هول ما ترى فلا راحماً تلقى ولا عطف مشفق
ودارةِ عزّ أوحشت من أنيسها وما كان فيها من جلال ورَوْنق
تحمَّل أهلوها على غير موعد وبانوا على حكم الزمان المفرِّق
ينادى لسان الحال من شرُفاتها « قفوا ودِّعونا قبل وشْك التفرّق »
ولم يُنْسها التوديعُ موقف شامت يقلِّب فى الغادين أجفان مُحْنَق
وما ملَّهم فيها ثواء وإنما نَجَوْا بالنوى من ظُلْم أرعنَ أحمق

---

(١) يريد بالغيابات السجون والمنفى .

يناديه فينا قائدَ الجيش[١] قومُه ... وما قادهم إلا إلى شر مأزق

تعسف بالأحكام غيرَ موفق ... وما ظالمٌ فى حكمه بموفق

فكم ساقَ من مصرٍ إلى الموت فتيةً ... زهاها الصّبا فى عنفوان وريّق[٢]

جموعٌ كآجال النعام تلفّها ... يدُ القهر للآجال من كل منعق[٣]

له عُصَب فى غورها وصعيدها ... تَخيُّرُ أبناء الشباب وتنتقى[٤]

فى كلّ إقليمٍ حُجولُ مُقيَّدٍ ... لغير عَصِيٍّ أو حبالُ مُرَبِّق[٥]

وفى كل وادٍ منهمُ سوطُ مُعجِل ... يهدّد بالتنكيل كل مُعوِّق

ومن لم يَسُقْه السوط والسيف ساقه ... إلى حيث شاءوا جهدُ عيش مرمّق[٦]

يوم إعلان الحماية

وقال عن إعلان الحماية فى ديسمبر سنة ١٩١٤ :

بلاءٌ على القطرين أغطش ليله ... ضحى يوم نحس بالخطوب مؤوّق[٧]

دَجَتْ يوم إعلان (الحماية) شمسُه ... فيالك من يوم على مصر أورق[٨]

به لَقِحَتْ سود الليالى فليته ... قضى فى بطون الغيب لم يتخلّق

قضينا به يوم المدلّه بالأسى ... وبتنا على ليل السليم المؤرّق[٩]

---

(١) يريد قائد جيش الاحتلال .

(٢) الريق : أول الشباب .

(٣) آجال أى القطيع والمنعق من نعق الراعى غنمه إذا زجرها .

(٤) يريد بالغور الوجه البحرى وتخير أى تنتخير .

(٥) الحجول القيود ، وربق أى شد .

(٦) المرمق من يشبع جوعا ويمسك رمقا .

(٧) أغطش ليله أظلمه ومؤوق اسم مفعول فعله أوق . يقال : أوقه أى حمله المشقة .

(٨) الأورق الذى لونه إلى الرماد . يريد أنه مغبر بالخطوب .

(٩) المدله : الذاهل .

عَشيةَ يدعو « مكسويل[١] » سَرَاتها ... لعيدين يوم الجمع يوم التفرق
يُبَوِّئُ عرشَ النيل من شاء جانفاً[٢] ... فنُشده والخطب بالخطب يلتقى
« رويدكِ حتى تنظرى عمَّ تنجلى ... غيابة هـذا العارض المتألق »
فمن دون عرش النيل كلُّ مدرّب ... كمىٍّ متى يُرعِد له الهول يُبرِق
بصير بأسباب الردى غَرْب سيفه ... لبوس المنايا بين هام ومفرق
ثَوَتْ نفسُه من بأسه فى مجَنَّةٍ[٣] ... متى يدْنُ منها طائفُ الموت يُصعَق

نقض العهود والمواثيق

وقال يهاجم الإنجليز و ينعى عليهم نقضهم للعهود والمواثيق :

فسائلْ بنا أعْلاجَ «لندن» هل وفَوْا ... بعهدٍ لنا بين الأنام ومَوْثِق
لدى فتنة لم يغن عن مصر عندها ... حميـة حام أو تقيَّة متقى
جرت عَمَماً لم تبق أرضاً أمينةً ... ولا بلداً بنّاؤها لم يحرّق
ثلاثين عاماً لا ترى مصرُ منهمُ ... سوى صَلَف المستـكبر المتعزّق[٤]
ثلاثين عاماً لم تَشِم برقَ راحة ... ولا طيب مخضرّ من العيش غَيْدق[٥]
ثلاثين عاماً بين يأس وحسرة ... وهول زمان بالحوادث مِتأَق[٦]
إذا ودَّعت (عاماً) من الجور أبقعاً ... تفيء إلى عام من البؤس أبلق
ثلاثين عاماً بالهوان تسومها ... سفاهةُ غارٍ فى المـكايد مفزق
يرى نفسه فوق القوانين بيننا ... متى ما نذكّره القوانينَ يحنق
يبيح غداً ما حرَّم اليوم بالهوى ... لغير الهوى فى حـكمه لم يوفَّق
إلاهـة جبّار وإمرة خاطل ... وتدبير أعمى فى الحـكومة أحمق
إذا ما شـكوناهم عميداً فأمرنا ... لأعـلم منه بالنـكاية أحذق

---

(١) الجنرال مكسويل قائد القوات البريطانية حين إعلان الحماية .
(٢) جانفا أى ظالما .
(٣) المجنة الترس .
(٤) المتعزق العسر الخلق .
(٥) الغيدق الرخص الناعم
(٦) متأق أى مملوء .

يقـــرب خوّانا ويرفع جاهلا ويُسعد أشقاها ويَشْقَى به التّقى

إذا ما مضى هذا أتى ذاك بعده على النهج لم يعدل ولم يترفق

إفساد التعليم

وقال يذكر إفسادهم التعليم والدور المشئوم الذى قام به دنلوب فى هذا الصدد :

و بالعلم سَلْ «دنلوبهم[1]» لم لميدع ذَوَاقًا من العرفان للمتذوّق

هو الجهل فينا حشدته لحكمة يدُ الله تنكيلا بشعب مدوق[2]

رمتنا به حمى أصابت بلاده تطاير عنها كل فَدْم حَبَلَّق[3]

فخلَّ بنـا فيمن تمرّق منهمُ فيا عجباً للســـــارب المتمرق

ولو وزنوا فى غير مصر مقامه لأرخصه فى السوم كل مُدَنِّق

فأصبح داءً فى المعارف قاتلا يسدد فيها كل سهم مفوّق

فواها على تلك العقول التى ثَوَتْ بكفّيه فى لحدٍ من الجهل ضيّق

ثلاثين عاماً يسكُبُ النيلُ حسرةً على العلم دمعَ الواله المتشوّق

وما وردوا من عذبه غير لامع من الآل فى بيدائها مُتَرَيِّق

ولولاه كانت مصر بالعلم روضة تلألأ بالأنوار للمتأنّق

أ « دنلوب » ما تلك المبانى رفيعةً متى ما تسامق هامُها النجم تَسْمُق

وما العلم أن يعلو رتاجٌ وقُبة على فدُن بالأرجوان مزوّق

أ «دنلوب» هل أرضيت قومك غايةً أم العَيْرُ[4] إن يَبْعُد به الشّوط ينفُق

ثورة سنة ١٩١٩

وله قصائد غراء فى ثورة سنة ١٩١٩ أرخ فيها جهاد المصريين والمصريات وفظائع الإنجليز فى قمع الثورة .

---

(١) المستر دنلوب وكان سكرتيرا عاما ثم مستشارا لوزارة المعارف والمسئول الأول عن انحطاط التعليم فى عهد الاحتلال .

(٢) المذوق المهزول .

(٣) القدم الأحمق والحبلق الصغير القصير .

(٤) العير الحمار ، وينفق يهلك ويموت .

حضارة مصر ومجدها

قال من قصيدة له أنشدها سنة ١٩١٩ فى الاحتفال بعيد النيروز يشيد بحضارة مصر ومجدها وفضلها على العالم :

فلا . يا ابنةَ البيتِ الذى عند بابه ... تخرّ ملوك العالمين إذا مَرّوا
رويدكِ إنّا فى العُلا يوم نَنْتمى ... كلانا أبوه النيلُ أو أمه مصر
لنا ذِرْوة المجدِ الذى تحت ظلّه ... تناسلتِ الأحقاب واعتمل الدهر
لنا آية الأهرام يتلو قديمَها ... حديثُ الليالى فهى فى فمها ذِكْرُ
ملأنا بها لوحَ الوجود مَناقباً ... إذا ما خلا عصرٌ تلاه بها عصر
وللعلم من آثارنا فى جبالنا ... على الدهر آياتٌ بها ينطِق الصَّخر
ولِلْمُلْك منا كلُّ أروعَ نظّمت ... على تاجه . الأفلاكُ والأنجم الزهر
ومنّا الذى ساق الأساطيل شُرَّعا ... على البحر يستحيى لصولتها البحر
إذا جهلوا «مينا» و«خوفو» و «كفرعا» ... فليس «برمسيس» على ملكه نُكر
وإن أنكروا مُلْكَ «ابن يعقوب» بيننا ... «فموسى» على ما أنكروا شاهدٌ بَرّ
لنا كلّ ما فى الأرض من مدنية ... بها تعمرُ الأمصار والبلد القَفْر

* * *

جزى الله مصراً ما جزى أهلَ نعمةٍ ... على الناس يَعْيَا دونها العَدُّ والحصْر
فكم كشفتْ من ظلمةٍ «عينُ شمسها» ... فما ثَمَّ سهلٌ لا يُضيءُ ولا وَعْر
لنا فى الورى حقُّ المعلّم لو رَعَوْا ... لنا ذِمَّةٌ والدهر شيمتُه الغدر
فهل يُنكر اليونان أنا هُداتهمْ ... إلى حكمةٍ فى العالمين بها بَزّوا
وهل نَسِى الرومان للنيل أنعماً ... بما ورثوا منها سما لهمُ الفخر
فنحن الأولى قد أورثوا كلَّ أمةٍ ... من الفضل ما يغنى به الحمد والشكر

إذا اعتزّ قومٌ بالجديد سمتْ بنا مكارمُ فى طىّ الزمانِ لها نَشْر

الوحدة بين العنصرين

وقال يشيد بالوحدة بين عنصرى الأمة :

بنينا على آداب عيسى وأحمدٍ منازلَ عزٍّ دونها يَقع النّسر
فنحن على الإنجيل والذِّكر أمة يؤيّدها الأنجيلُ بالحقّ والذكرُ
لنا كل ما فى مصرَ والحقّ قائمٌ تؤيده الآيات والحجج الغرّ
فلن يستطيع الدهر تفريقَ بَيْننا وإن جرّ قوم بالسّعاية ما جرّوا
كلانا على دينٍ به هو مؤمن ولكنّ خِذلان البلاد هو الكفر

إذا مادعتْ مصرُ ابنَها نهض ابنُها لنجدتها سيّان مرقس أو عمرو
ترى ذكرَ مصرٍ فى الهيا كل قُربةً وفى صلوات المسلمين لها ذِكر
فلا يحسبنّ الناس أنّا تزلزلتْ بنا قَدَمٌ أو مَسّ وَحدتنا الضرّ
ألمْ ترنا فى كلّ عيد وموْسمٍ حليفَىْ ولاء لاجفاء ولا هجر
إذا كان عيد الفطر فالكل مُفطِر يهلّل بالبشرى ويزهو به البِشر
وإن جاء بالنّيروز يومٌ تزاحمت عليهمْ به الأفراحُ وانتعش القطر
فياعيدَ أهلِ النيلِ عِدْ أهلَك المنى تجلّى منارُ الحق وانبلج الفجر
وصافحْ بشعبَيْك السعادةَ مُقبلاً بمصر على الأفراح ولْيقل الشعر :
تلاقت أمانينا على خيرِ غايةٍ وسارت بنا الآمال يقدُمها النصر

ثورة الأمة سنة ١٩١٩

ومن قصيدة أخرى أنشدها فى حفلة لعقائل السيدات فى مسرح برنتانيا سنة ١٩١٩ :

مصرُ أُمّى ، فداء أمى حياتى سلمتْ أمّنا من العاديات[1]

---

(١) العاديات : الأحداث والنوائب .

يا رياح الحياة فى مصرَ هُبّى ... روِّحينا بطِيب ريّا الحيـــاة
ياسماء الحيـــاة فى مصر جودِى ... أنفُساً فوق نيلها صاديات[1]
مالأمّ الأمصـــار حمّلها الدهـ ... ـر صنوف الآلام والمُوجِعات ؟
مارعى ذمةً لهـا يوم كانت ... زينةً فى عصـــوره الخاليات
إن تناستْ قديمَ مصرَ ليـــالٍ ... أنـكرت صالحاتها الباقيات
فاسألوهن عن حديثٍ حديثٍ ... لبنيها عَدُّوه فى المعجزات
دَهِش الناس يومَ قيل صحتْ مصـ ... ـرُ وكانت فى غَفْلة وسُبات
إذ لَقينا الخطوبَ وهى شدادٌ ... فتولّت جموعُها مُدْبِرات
وركبنا متنَ الزمان ذَلولا ... فمضيْنا لغـــاية الغايات
بين شيب بالحزم تحدو شبابا ... صادق العزم ثاقبى النظرات

دور المرأة فى الثورة

وقال يشيد بدور المرأة فى الثورة :

وغَوانٍ سمعن دَاعىَ مِصرٍ ... بين تلك القصور والغرفات
أفزعتْهنّ حادثات الليـــالى ... فى بنيهنّ بالرّدى راميات
فترامين من وراء خدور ... كنّ فيها البدورَ مختدرات[2]
سافراتٍ ولسنَ أهلَ سفور ... حاسراتٍ من شِدّة الحسَرات
وكتبْن الوفاءَ للنيـــل عهدا ... فى قلوب بحبّه داميات
وتواصين لا يضيِّعن دِينـــا ... أو يعطِّلن سُنّة المؤمنات
إيهِ . لله سعيُـكنّ جميلا ... يابناتِ الأنجاب والمنجِبات

---

(١) صاديات : عطشى .

(٢) مختدرات : مستترات فى خدورهن .

ظلموا النيل يوم عدّوا بنات النّـــيل جهلا فى زُمرة الجاهلات
زعموهن بالحجاب عن العـــلم ونور العِرفان محتجبات
بنتُ مصر كالشمس يحجبها الليـــل وراء الآفاق والظلمات
وهى فى أُفْقها ضياء ونور ساطع فى بدورها النيّرات
أوْهى المسك ينفُذ العَرف عنه من وراء الأستار والحجُرات
عرفتْ كيف يكبُر المرء طفلا كيف يقفو أباه فى المكرُمات
أبصرتْ منبتَ المحامد فيـه فتولّتْه بالتُّقى والأناة
وغذَتْه المجدَ الذي ورِثته عن كرام الآباء والأمهات
يا ابنة النيل أنتِ للنيل ذخر خالد فى آثاره الخالدات

وثبة مصر

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٠ يصف وثبة مصر :

تـكلّم وادى النيل فليسمع الدهرُ وأملَى على الأيام فليكتب الشِّعْرُ !
فحسبُ العوادى نَهْمةُ النيل زاجراً وحسبُ الليالى أن يُقال صحتْ مصر[1]
صحتْ بعد ما أزرَى بها الصبرُ والأنى[2] ويا ربما أزرى بصاحبه الصـــبر
لعمْرك ما صبرُ الأبيّ مهانةً ولـكنّ صمت الليث يعقبه الزأر
فلا تحسبوا أنّا وَنَيْنا عن العـلا ولا زَهِدتْ فينا مناقبنا الغرّ
ولا أنكرتنا شمسُ جيل ولا انطوى لنا عَلَم بين الدهور ولا ذكر
وفى الناس من شابت قرون « وأعصر » وهُمْ فى بطون الغيب عرفانُهم نكْر
وهل مصرُ إلا آية أزليـــةٌ مقدّسَة والنيلُ فى لوحها سطر
تفلّقت الأجيـــال حول وجودنا ونحن الجبال الشمّ والزهر النضر

---

(١) النهمة : الصوت .
(٢) الأنى : الأناة .

لئن كان ماضينا فخاراً فإنما ... بحاضرنا تعلو المحامدُ والفخرُ
وَقفنا لرَيب الدهر حتى تغلّتْ ... مصرُ به وانشقّ عن ليله الفجر
حرامٌ علينا أن نعيش أذِلةً ... وذو الذل أولى ما يكون به القبر!

فظائع الإنجليز فى قمع الثورة

وقال حين اشتد عدوان الإنجليز فى قمع الثورة سنة ١٩١٩ وفتكوا فى طريقهم ببعض القرى كالعزيزية والبدرشين :

يا مصرُ ما بال الأسى لك حالَا ... لو أنّ مفجوعا يردّ سؤالا
ظلم الزمانُ بَنِىَّ فى أحدائه ... وعدا عليهم بالخطوبِ وَصَالَا
يا ناشرِى عَلَمَ السلامِ ، ألم ترَوْا ... للسِّلم فى أرجاء مصر مجالا ؟
ما العدل ؟ ما حريةُ الأمم التى ... سارت رسائلكم بها أرسالا ؟
ماعهد(ولسُن[1]) أين ولسن هل درى ... أنّا بمصر نكابد الأهوالا ؟
أمِنَ العدالة عنده أن يُبتلى ... شعبٌ يريد بأرضه استقلالا ؟
سفراء (ولسن) هل لكم أن تبلغوا ... عن مصرَ صوتاً بالشّكاة تَعالَى ؟
صرخاتُ أهل النيل مِنْ أحلافكم ... طارَ الزمانُ لوقعها إجفالا
أضحت شعوب الأرض فى بُحبوحة ... يتفيئون من السلام ظلالا
وهم أحق العالمين بوِرْده ... صفْواً وشربِ رحيقِهِ سَلْسَالا
لكنهم سِيموا الردَى فتواردوا ... شِرَعَ[2] المنايا مُسرِعين عجالا
تَعِسوا بحكم الإنجليز وطالما اعـ ... ـتمدوا عليه وخادعوا الآمالا
ما بال أبناء الحضارة أوْغَلُوا ... فى أرض مصر نِكايةً ونكالا
وثَبوا على القطرين وَثبةَ قاهر ... هتَك الستورَ ومزّق الأوصالا

---

(١) ويلسن الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية . ويريد بعهده مبادئه المشهورة التى أعلنها عند دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى وأساسها احترام حرية الشعوب واستقلالها .

(٢) شرع ، جمع شرعة وهى المورد .

نزلوا بأرض النيل منزلَ غادرٍ ... نصب الخداعَ حَبَائلا وحِبالا
حلفوا لأهل الأرض حِلفة فاجرٍ ... لبِسَ المُسوح مُرائياً محتالا
أن يبسطوا ظِل الحضارةِ فوقه ... ويعلّموا من أهله الجهّالا
حتى إذا ملكوا أزِمّةَ أمره ... ساموا بَنيه الضَّيمَ والإذْلالا
واستنزفوا ثمراتِ مصرَ كأنما ... خُلِقت لهم ثمراتُها أنفالا
فإذا بدَا وجه الخداع وأشرقت ... شمسُ العدالة فى الورَى تتلالا
نَفضوا[1] رءوسهمُ لغَيْلة أمة ... خُلِقت تعافُ الغادرَ المغتالا

شجاعة المصريات فى الثورة

وقال فى هذه القصيدة يصف شجاعة النساء المصريات فى مقاومة الإنجليز :

تلك العقائل يرتمين مع الظُّبا ... مستقبلات للردى استقبالا
تُغْضى عيون بنى البلاد مهابةً ... من حولهن وتنحنى إجلالا
وأرى ابن لندن نحوَهن مصوِّبا ... بِيضَ الظبا متوثبا مجتالا
يابن اللّكيعة[2] إنهن عقائل ... يَفْدِين من فتكاتك الأنجالا
يابن اللكيعة إنهن عقائل ... يسأَلْن حقاً لا يُردْن قتالا
يابن اللكيعة ما حملن صوارما ... لبنى أبيك ولا دعون نِزَالا
أبناؤهن إذا الأصول تقارعت ... كانوا الكرامَ وكنتمُ الأنذالا
يابن اللكيعة تلك سُبَّتك التى ... صدع المقطمَ خزيُها فأمالا
وارحمتاه لقرية مفجوعة ... والليلُ يُرخى فوقها أسدالا
محزونة خَبَأَ القضاء لأهلها ... تحتَ الظلامِ وَقيعةً ونَكالا
من غادة غال البغاةُ عَفافها ... فبكى الحجابُ عفافها المُغتالا

---

(١) نفضوا رؤوسهم : حركوها وهزوها .
(٢) اللكيعة : اللئيمة .

ومصونة فى الخِدرِ طار بلبّها صيحاتُ كلب فى الحظيرةِ جَالا
ماذا أرى ؟ جِنٌّ أحاط بمضجعى أَمْ تلك أحلامٌ تَمُرُّ خيالا ؟
ما هذه الجَلَباتُ ؟ لا أدرى لها معنى ونست أَعِى لهُنّ مقالا
أنا لست نائمة ؟ وهذى جِنة[1] تدنو كأعجازِ النخيل طِوالا
ويلاه ! ما لأَبى عَلىّ نائماً ؟ والبيتُ من وَقع الحوافر زالا
أعلىّ نادِ أباك ، لا ، أنا خائفة يا أمُّ لا تتكلمى ؟ لا لا لا
هذِى جنود الإنجليز رأيتها (بالبدرشين) تقتّل الأطفالا
صاحُوا بصَحن البيت صيحةَ فاتكٍ عاتٍ يرى النفسَ الحرامَ حَلالا
فإذا مَتَاع البيتِ يُنْهَب بينهم وقد استحلوا نَهْبَه استحلالا
ولرُبَّ دار بالقنابل أصبحت قبراً تضمّن نسوةً وعيالا
وأَبٍ تحيط به هنالك صبيةٌ تبكى عليه وتُكثِر الإعوالا
ظُلْماً تَشُول به القنابل فهو فى جوِّ السماء مع القشاعِمِ شَالا[2]
يا رَبّ ، إنَّ الإنجليز تعمدوا إرهاق مِصر سفاهَةً وضلالا
يا رَبّ ، مصرُ بك استجار ضعيفها فى عَبْرَة تُذْرِى الدموعَ سِجالا
فأَذِقْ عدوَّك سُوءَ ما مكروا به واجعل عواقبه عليهِ وَبالا

يخاطب مؤتمر الصلح بباريس سنة ١٩١٩

ومن قصيدة له أنشأها حين اعتقل سعد زغلول لأول مرة فى أوائل سنة ١٩١٩ ، يذكر الثورة ويعاتب مؤتمر الصلح فى إهماله مطالب مصر :

يا دماء الشباب تجرى على الأر ضِ جِسادا[3] به ثَرَى مصر يُطلى
ما لباريس لا ترى أهلَ مصرٍ بين أهل السلام للعدل أهلا ؟

---

(١) جنة : جن .
(٢) تشول : تعلو ، والقشاعم : النسور .
(٣) الجساد (بالكسر) الزعفران .

كل شعب له بمؤتمر الصلـ ـح نصير من البعوث ومولى
ليت شعرى فهل أتاه كتابٌ أو تلقّى من جانب النيل رُسْلا ؟
أو دَرَى أننا نُراد اختلاسا فى بياض النهار والشمس تجلى
سفراء الملوك ، ضجة مصر حولكم من زمازم[1] الرعد أعلى
كم رفعنا إليكمُ فى شكاةٍ حُجَّة كالصباح أوْ هى أجلى
وسألناكمُ البلاغَ فلم نسمع جواباً يُردّ فى الغِمد نصلا
إنّ للنيل ذمةً وعهوداً هىَ دَيْنٌ عليكمُ ليس يَبْلى
لو حقَنْتم تلك الدماء اللواتى أهرقتها بنادق القوم سَبْلا
كان سهلا عليكمُ أن تصونوا أنفساً ، وِرْدُها الردى كان سهلا

يندد بفظائع الإنجليز فى إخماد الثورة

وقال فى هذه القصيدة موجها حديثه إلى المارشال أللنبى الذى عهدت إليه بريطانيا قمع الثورة :

أيها القائدُ المُدِلّ علينا قاتلَ الله مَن علينا أدلّا
صَلَفٌ بين أهل مصرَ وعُجْبٌ كان هذا بأرض (بلجيك[2]) أولى
صَلَف جدَّ فى مواطن هزل فإذا جِدّ جِدّها عاد هزلا
علم الناس أن مصرَ بلادٌ لم تكن للحروب والسيف قبلا
منعتها الأيامُ حملَ المواضِى[3] وهى زَيْنُ السيوف هزاً وحملا
فلِمَ الكبرياء بين أناس تركتهم حوادث الدهر عُزلا ؟
أيها القائد الذى حيَّر السيـ ـف بدار الأمان شَيماً[4] وسلا
عَلِّم الخيل كيف تختال فى غيـ ـر بلاد لم تُجْر للحرب خَيلا

---

(١) الزمازم : جمع زمزمة ، وهى الصوت البعيد المدوى .
(٢) يشير إلى هزيمة الحلفاء أمام الزحف الألمانى فى بلجيكا إبان الحرب العالمية الأولى .
(٣) المواضى : السيوف . (٤) الشيم : اغماد السيف .

إنما يَحْمدُ المَخيـــلةَ[1] يومٌ أشرف الموتُ فوقه أو أطلا
ما لمصرٍ تُجْزَى جزاءَ سِنمّا رَ لديكم و بالدنيّة تُبـــــلى
وأراكم لولا بنوها سُقيتم من حياض المنون عَلا ونَهلا
سائلوا الشامَ هل بغـير بنينا جُبتُم الوعرَ من فلسطين سَهْلا
أو مددتم بغير أبنـــاء مصر فى بلادِ العراق للفوز حَبْلا
إبْلُ مصر وأتنها[2] تعرف الفضـ ـل عليكم ، لا تنكر العُجْمُ فضلا
لو درى النيـل ما سيلقى بنوه حرّم الأرضَ غيرةً أن تُغلا

كم ظفِرتم منه بمـــا عجز (التا ميز) عنه وناء بالعبء حملا
كلَّ عام تجبى إليكم حبوبٌ تفضخ الجاريات وزْناً وكيلا[3]
وقناطيرُ من نضـــار يوافيـ ـكم بها القطنُ كلَّ عام أهَلّا
نِعَمٌ لو أردتمـــوهن شكراً ما وفيتم منهـا القليلَ الأقلاّ
ما جهلتم لمصرَ فيهـــا صنيعاً إن تقولوا قد يُنكر الفضلُ جهلا
أنســـيتم لمصرَ ما منحتكم من هِبات ما جاوزت بعدُ حولا
أم نسيتم أبناءها يفتك المو تُ بهم فى الوغى وباء وقتلا

وختمها بقوله :

معشرَ الإنجليز مصر لأهليـ ـها ومن ظن غير ذلك ضَلّا
معشرَ الإنجليز مصر استقلت وجديرٌ بالنيـــــل أن يستقلا

يخاطب مؤتمر الصلح أيضاً وينادى بالاستمرار فى الكفاح

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩١٩ يخاطب مؤتمر الصلح بباريس ، وينذر بالاستمرار فى الكفاح إذا لم تجب مطالب مصر :

---

(١) المخيلة : الكبر .
(٢) الأتن : الحمير ، والعجم : البهائم ...
(٣) الجاريات : السفن ، وتفضخها : تكسرها لثقلها وكثرتها .

أباريسُ إن كانت لضيفٍ كرامة ... لديك فضيف النيل أبلغُ من يُثنِي
أباريسُ إن تُدنى العدالةُ وافداً ... عليكِ فأهلُ النيل أكرمُ من تدنى
أباريسُ كم للنيل عندكِ من يد ... تناقلها التاريخُ قرناً إلى قرن
ومن شُكرها أن تعرفوا حق أهله ... وألا تَسُوموا (وَفْدَهُ) صفقة الغبن
حرامٌ عليكم أن يراق له دم ... حرامٌ وأنتم قادرون على الحقن
فيا أمراء الغرب دعوة مُسْمع ... يُصرّح فى رفع الشكاةِ ولا يكنى
سلوا حِلْفكم عما جرَى فى ديارنا ... وما جرحوا مما يَشين وما يضنى
وما هـذِه الغارات يعلو صريخها ... مؤججةً ، هذى تروعُ وذِى تُفنى
وما هذه الأجسادُ فى كل بلدة ... مُصرَّعةً فوقَ التراب بلا دَفن
إذا طفح الخزّان من دم أهله ... فَثَمَّ دمٌ فى الثغر يُرْبى على الخزن
نَرى الحرب فيما بينكم جفّ عودها ... فما بالها فى مصرَ ناضرةَ الغصن ؟
على غير ماذنبٍ جنينا فما لنا ... نُسَامُ الدنايا لم نحاربْ ولم نَجْنِ
فيا عجبا شعب يساق بأرضه ... أسيراً إلى دار المذلة والسجن

* * *

ملوكَ الوَرَى ، لن يتركَ النيل حقه ... ولو مزّقونا بالمثقفة اللُّدْن[1]
ملوكَ الوَرَى ، لن يتركَ النيل حقه ... ولو طحنوه بالمقذّفة الدُّكْن[2]
ظننا بهم خيراً من الدهر حِقْبة ... فكانت قصارانا بهم خيبةُ الظن
صبرنا وأشهدنا الأنام عليهم ... إلى أن رَمَونا بالمهانَة والجبن
ثلاثين عاماً بعدها سبعة خلت ... طوال الليالى السود حالكة الدجن
عواصفُ بأس يُنشد النيل تحتها ... نقمتُ الرضا حتى على ضاحك المُزْن

---

(١) يريد بالمثقفة اللدن الرماح المقومة .
(٢) يريد بالمقذفة الرصاص والقنابل . والدكن : ما تضرب إلى السواد .

سَقونا بها مُرًّا من العيش آجنا ... ويا ليتهم لم يرهقوا الناس بالمَنّ
فإن تُنصفوا أبناء مصر فمِنّةً ... لكم أبداً نُثنى عليها بما نثنى
وإلاّ رددناها عليهم كريهةً ... وللدهر شأن لا يُقاس على شأن

رثاؤه لمحمد فريد

ولما جاء نعى الزعيم محمد فريد فى منفاه (نوفمبر سنة ١٩١٩) — وكانت مصر فى إبان الثورة — رثاه بقصيدة مؤثرة تفيض وطنية و بلاغة قال :

سَلُوا جفنَ عينى ما له بات ينزفُ ... وعهدى به إن سُمْتُه الدمعَ يأنفُ
ويارُبَّ همٍّ يملك النفسَ بالأسى ... ويعدو على العين الجمود فتذرِف
وما أنا ! ما دمعى ! وفى مصر أنَّةً ... بها الطير نوح والغمائم وُكَّف[1]
بكين غريباً طوّح البينُ دارَه ... فلا العَوْدُ مأمول ولا الدارُ تُعرف

* * *

وما أنكرتْ مصرُ ابنها فنَبتْ به ... ولكنه دهرٌ على الحر يُجْنِفُ[2]
ثوى غربةً ، بعد المعاد قرارُها ... فيا طول ما يستشرف المُتشوّف
وكنا حسبنا شُقةَ البين تنطوى ... فيأوى إلى مرباعه المُتصيِّف[3]
وأطمعنا فى الملتقى لمعُ بارقٍ ... من السِّلم فى ليل الحوادث يَخْطف
فلم نر سلماً ينتهى النأى عندها ... بناء ولا حتمَ الردى يتخلّف

* * *

بعينىَ من نادى مناديه للنوى ... فَوَدّع لا يأتى ولا يتوقّف
يُدافع آلاماً تياسرن قلبَه ... لها حُرَقٌ تُدمى القلوب فتنطُف
فى قلبه مما دهى النيلَ زفرةٌ ... يكاد لها من تحته البحر ينشَف

---

(١) وكف : مرسلات بمائها .
(٢) أجنف : جار وعدا
(٣) المرباع : المكان ينبت فى الربيع ، والمتصيف : المصطاف .

وفى عينه من لوعة البين عَبرةٌ يكفكفها كِبراً فلا تتكفكف
وفى نفسه عُتْبَى على البلد الذى قسا أهله جهلا عليه وأجْنَفو
برحتِ بنا يا مصر لا عن جناية يُعَنَّى عليها جارم أو يُعنّف
وكيف تناست مصر حسنَ بلائنا إذ الدهر ألوى والحوادث تَعصِف
مواقفنا يا أمُّ فيك شهودُها تؤيدنا يوم العتاب وتُنصِف
رويدك نفساً أنكرت فعل قومها بذى حَدَب يُقْسى عليه فيرأف
على رغم قومى ما لقيتُ وإنما هو الدهر فى أحكامه يتعسَّف

* * *

سلامٌ على قومى ، وداعاً بنى أبى وللنيل ما ألقى وما أتكلف
ويا موقفَ التوديع هل تُسعد المنى فيجمعَنا يومٌ بمصر وموقف
أخاف المنايا أن يكنّ رواصداً ومالىَ من أسبابها أتخوّف
تحدثنى طيرٌ جَرَيْنَ بوارحاً بأن المطايا بى إلى الموت تزحف
ويحزننى وِرد المنايا ولم تزل بلادىَ تحبو فى الإسار وترسُف
حرامٌ علينا أرضُها وسماؤها أليَّةَ[1] من لا يمترى حين يَحلف
ويا فُلْكُ باسم الله مجراك أقلعى فإما الرَّدَى أو ينصف النيلَ مُنصفُ
فما كان إلا أن طوى البحر والثرى وحجَّبه سترٌ من الغيب مُسجَف[2]
فدون تلاقِينا ليال وأشهرٌ وبين ديارينا جبال وصَفْصف[3]

* * *

هنا لك ألقى فى بنى الغربِ رحلة على همة من همّها الدهرُ يَكْلَف
بعيد المرامى لاتهد صفاتَه عوادٍ إذا صَبّت على «الألب[4]» تحْرَف

(١) الألية : القسم .
(٢) أسجف الستر : أرسله .
(٣) الصفصف : الفلاة .
(٤) جبال الألب المشهورة .

تقذّفه فى زاخر اليأس همة ... جدير بها الليث الهصور المقذّف
وهيهات أن يخشى أخو الحق قوةً ... سوى الحق أو يعنو لبأس فيضعُف

ثوى فى بلاد الغرب بالنيل عاتباً ... وفى الغرب للعانى مَراد ومألف
يصرّف أحداث الليالى غواشماً ... وأنيابُها من شدة البأس تَصْرِف
فطوراً تراه فى « جنيف » لباسُه ... على القرّ أسمال به يتلفف
إذا صَفِرت من ذات دنياه كفُّه ... تجلّد لا يشكو ولا يتأفّف
ويأوى إلى بيت وطئ عمادُه ... وفى مصرَ يبكيه البناء المطنّف
ويكنفه من فتية النيل أنجمٌ ... بهم نعتلى هامَ الفخار ونَشرف
إذا احتدمت للبأس نارٌ فعلْهَمٌ[1] ... على البأس ماضٍ ذو غرارين مرْهَف
وإن ذُكر المجد القديم فإنما ... بذكرهمُ تلهو القِيان وتعزِف
إذا ما انتمى قوم لدُنيا جدودِهم ... نَمَتْهم لعُلياها معدٌّ وخِندف[2]
وإن ذكروا أبناء فرعون رجّعت ... مناقبَهم وُرْقٌ من الفخر هُتّف

* * *

فيا مُسمعَ الأحرارِ من كل أمة ... مُنَى قومه والحرّ للحر يُنصف
لقد فجع « الفسطاطَ » فيك وأهلَه ... من الغرب ناعٍ قام باسمك يهتف
لقد فجعونا فيك يوم تتابعت ... رسائلهم بالموجعات وأرجفوا
فيا ويح يومٍ قال فيه غريبها ... على فُرُش البلوى ببرلين مُدنَف
بروحىَ إذ جاء الأطباء خُشَّعاً ... وقاموا بأكناف السرير وطوّفوا
يعلّله بالقول منهم مُبشِّرٌ ... وتبكى له منهم قلوبٌ وترجُف
تجوّفه الداء العضال وهل نجا ... من الموت مُضنًى داؤه يتجوّف
قضى الله أن يُسْقَى « فريد » بأرضنا ... كؤوساً بالاستسقاء للنفس تخطِف

---

(١) العلهم : الضخم العظيم .
(٢) معد وخندف حيان من العرب ، يريد أن أصولهم عريقة فى النسب والشرف .

يعز على « برلين » أن يغلب الردى ... عليك بنيها ، والردى ليس يُصرَف
أطبـــاءه : لو يستطيع فداءه ... بنو مصر غالوا فى الفداء وأسرفوا
قليلٌ عليـــه لو يُفدِّيه قومه ... بما جمعوا من تالدٍ أو تَطَرَّفوا
فليتَ الليالى سالمت فيه أمةً ... براها الأسى من بعـده والتلهف
عرفنا له بِرّ الوفىّ بعهـــدها ... إذا خان قومٌ عهدَ مصر فلم يَفُوا
أفاض عليها نفســه بعد ماله ... ومالَ بهم عنها متاعٌ وزُخرف
ولولا رجال مؤمنون نَجَوْا بهـا ... لراحت بها ريح من الغدر زَفْزَف[1]

يندد بالفرقة والانقسام ، ويدعو إلى الوحدة

وحين حدث الانشقاق فى الوفد سنة ١٩٢١ وقام الخلاف بين سعد وعدلى وانقسمت الأمة تبعا لذلك ، نظم قصيدة يندد فيها بالفرقة والانقسام ، ويدعو إلى توحيد الصفوف قال فيها :

كنا أشـــقاء الإخاء فما لنا ... صِرْنا بنى العَلّات والأخْياف[2] ؟
بالأمس كان إخاؤنا مثـــلا ... وكنا زينة الخلطاء والأُلّاف
كنّا إمامَ المَشرقين ، سـبيلُنا ... قَصْدٌ ومشْرعنا نميرٌ صـــافى
يترسمون على الحيـــاة طريقنا ... للحق فى الإيضاع والإيجاف
فإذا بنا جارت هَوَادى رَكْبنا ... عن منهج الآباء والأسلاف
عَبثتْ بوحدتنا الخطوبُ وأعملت ... فى غَرْس أيدينا يدُ الإتلاف
والخصم يحجل بيننا للشر فى ... ثوبين ثوب مُوافق ومنافق
مُتنمّر يُغرى العداوة بيننا ... بالكيد والتفريق والإرجاف
أوَليس فيما قد مضى من عِبْرة ... لبنى أبى ، والأمرُ ليس بخافى ؟

---

(١) زفزف : شديدة الهبوب فى دوام .

(٢) العلات : جمع علة ، وهى الضرة . والأخياف : الذين أمهم واحدة وآباؤهم شتى .

أوَلم يَرَوْا أو يسمعوا نُذُرَ الردى ... تَطْوى إلينا لُجَّةَ الرَّجَّاف[1]

هذى تُنوِّح بالوعيد وتلك تر ... مينا به فى لهجة الأجلاف[2]

جعلوا صحافتهم مظاهرَ كيدهم ... فتزاورت جنفاً عن الإنصاف

صحف يضيع الحق فى ألوانها ... صوراً يزيد بها على الآلاف

الحق فيها كل ما شاء الهوى ... حُكْمٌ تؤيده بلا استئناف

فليعتبر قومى كفى ما قد جرى ... من ذات خلف بيننا وتنافى

لا تُوجِعوا تلك القلوبَ فحسبها ... جام أصاب من الزمان الجانى

عشر كواملُ فى الخلاف فهل بها ... من ذلك الداء المبرّح شافى

شربت من الأيام كل مرنَّق ... من كل مر بالخطوب زُعاف

أبنى أبى ، ردوا القلوب إلى الهدى ... وتنبهوا فالدهر ليس بغافى

الوفد منا والحكومة بعضنا ... هذا أخو هـــذا بغير خلاف

والشر غايته البوار ومن أبى ... فالله للشـــعب المروّع كافى

---

(١) الرجاف : البحر ، سمى به لاضطرابه .

(٢) الأجلاف : جمع جلف ، وهو الرجل الجافى .